محمد القشعمي..حارس التاريخ

محمد عبدالرزاق القشعمي (٦٢ عاما)، مثل الصمغ إذا اقتربت منه ستعلق به.

وأنا علقت بهذا الرجل في سن مبكرة، عندما كنت في السابعة، حينما كان يزور والدي في الأحساء. فلا يأتي عمي محمد خاليا. كان يجيء ممتلئا. في يده اليمنى سكاكر لي ولشقيقي، وفي عينيه سعادة يضخها في أنحاء منزلنا وعلى لوحات والدي.

نعلم أنه سيأتي عندما نرى والدي مرتبكا. يركض في أرجاء المنزل بلا بوصلة، يسافر من غرفة إلى غرفة، كأنه يبحث عن ابتسامة فقدها.

«أبو يعرب» له فضل كبير على والدي بعد الله سبحانه وتعالى. فقد أخرجه من عزلته، وتوحده مع لوحاته، إلى النور. عندما شجعه على المشاركة في المعارض التشكيلية والثقافية المختلفة أثناء عمله مديرا لمكتب رعاية الشباب في الأحساء.

لم يكن والدي الوحيد الذي زرع عمي محمد السعادة في صدره، بل هناك مئات ممن حرث حقول أحلامهم وغرس السعادة في أحشائهم.

(ترحال الطائر النبيل)، هذه الببليوغلرافيا النبيلة التي كتبها عن الروائي الخلاق، عبدالرحمن منيف عندما بلغ السبعين، عمل عظيم وجدير بالتقدير. يقول لي «أبو يعرب» بعد أن غرق وجهه في الدموع «كنت أريد أن أكتب عنه في حياته. كنت أسهر حتى الفجر لأنجز المشروع. كانت عيني تؤلمني، وخشيت أن أصاب بالعمى دون أن أكمل ما بدأته».

القشعمي لا يجيد الرثاء بقدر إجادته للوفاء. (الأحياء منهم قبل الأموات)، شعاره الذي يُسخر ويكرس من أجله أصابعه ورئته. فهو لا ينتظر أن يموت أديبا أو كاتبا أو صحفيا حتى يتصدى لتكريمه، كان يكتب ويغني للافتين وهم أحياء يرزقون.

أعد ٣٥١ صفحة دسمة عن الرائد، عبدالكريم الجهيمان في توثيق لا يجيده سوى حارس التاريخ، محمد القشعمي.

من يتصفح إنتاجه الغزير فسيعتقد أنه بدأ رحلة الكتابة في وقت مبكر، لكن الحقيقة غير ذلك، فهو بدأ علاقته مع التأليف قبل أقل من عقدين. يقول «لم أعلم أنني قد أبدع في شيء إلا متأخراً».

عندما قرأت مطلع الشهر الجاري عن نية وزارة الثقافة والإعلام تكريم رواد الصحافة في السعودية على هامش معرض الكتاب، جزمت بأن «أبو يعرب» خلف هذا المشروع، وعندما واجهته بتكهني، هز رأسه، مبتسما.

أسعدني أنه يعكف حاليا على كتابين، أولهما عن وكلاء وممثلي الملك عبدالعزيز في الخارج، والآخر عن بدايات المطالبة بتعليم المرأة في المملكة.

وتذكرت وأنا أصغي إلى «أبو يعرب» وهو يتحدث عن كتابيه المرتقبين ما كتبه شاعرنا المائي، محمد العلي في ذيل مقدمة كتاب القشعمي (الفكر والرقيب): «شكرا «أبو يعرب» على هذا الإصدار.. وزدنا من مفاجآتك».

تجربة «أبو يعرب» تجسد رحلة كفاح مضنية وممتعة. بدأ مأمورا للأرشيف في إدارة رعاية الشباب في وزارة الشؤون

الاجتماعية والعمل عام ١٩٦٢، ومازال يركض في حقول الثقافة والأدب دون كلل معتمرا طموحا لا يتقاعس، وقلبا لا يضمر إلا الحب.

أدعو الله - عز وجل - أن يحفظه لنا حارسا للتاريخ، وسادنا للكلمة، بارا بالحرف، وصديقا للتوثيق، وحليفا للتوفيق.

صليتُ لله شكراً عندما تحققت أمنيتي والتقيته في معرض الكتاب في الرياض قبل يومين، فهو لا يستكين. ولا يملك هاتفاً جوالاً. ابتهجتُ، عندما رأيته مرتديا ثوبا بلون الحليب، وابتسامة لم تتغير منذ ٢٢ عاما، ولكنني حزنت لأنني لم أقبل جبينه.

الجمعة ٦ ربيع الأول ١٤٢٩هـ الموافق ١٤ مارس ٢٠٠٨م